فتطلعوا بشغف إلى الأيام التي كان بوسعهم، زمن الحكام المسلمين، أن يباشروا (يمارسوا) عبادتهم كيفما شاؤوا»[43]. وكان هذا التفاوت في الطقوس مؤثراً إلى درجة أنه فرض تفاوتاً في المشاعر، تجاه المسلمين، بين هؤلاء المسيحيين الوطنيين (العرب) وبين المسيحيين اللاتينيين (الفرنجة)، مما حدا بعالم مسيحي أرثوذكسي، من مدينة القدس، يدعى «يوسف بابيط»، لأن يرتضي أن يكون مستشاراً لصلاح الدين في أمور أبناء طائفته من المسيحيين العرب الأرثوذكس. وقد استطاع صلاح الدين، بفضل هذا العالم «الاتصال بالجماعات الأرثوذكسية، في داخل المدينة، فوعدوا بفتح أبواب المدينة لصلاح الدين»[44]. ويتهم «غروسيه» المسيحيين الوطنيين «الروم الملكيين» بالتآمر على «الكاثوليك اللاتين» وتفضيلهم للمسلمين على الفرنجة بسبب الخلاف القائم بينهم وبين اللاتين حول كنيسة القيامة، ويستشهد بنص من كتاب لرينو (Reinaud) عن بطاركة الاسكندرية في «نبذة عن المؤرخين العرب» فيذكر أن «القسم الأكبر من شعب القدس، يتألف من مسيحيين روم ملكيين يضمرون حقداً مميتاً للمسيحيين اللاتين»، ثم يذكر قصة «يوسف بانيط» (كما يسميه) الذي اتخذه صلاح الدين مستشاراً له كما سبق أن ذكرنا، وأن يوسف هذا أقنع «ملكيي» القدس بأن يفتحوا أبواب المدينة للمسلمين[45].

قبل أن يغادر صلاح الدين، بجيشه، عسقلان، متجهاً إلى القدس، أرسل إلى أسطوله في مصر، وكان عليه «حسام الدين لؤلؤ الحاجب»، يأمره بأن يتجه صوب السواحل الشامية بمهمة اعتراضية لكل السفن الفرنجية التي يمكن أن تتجه نحو المدينة المقدسة حاملة مساعدات من أي نوع كان، وما أن وصل الأسطول إلى عرض البحر، مقابل القدس، وبدأ بتنفيذ مهمته، حتى سار صلاح الدين، بجيشه، من عسقلان إلى القدس، فبلغها في 20 أيلول/ سبتمبر 1187م (15 رجب 583هـ) حيث عسكر أمامها، وبدأ يستعد لحصارها وقتالها[46].

---

(43) رنسيمان، م. ن. ص 751.

(44) م. ن. ص. ن.

(45) Grousset, Op. Cit., V. 2, pp. 811-812.

(46) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 11: 546. ورنسيمان، المرجع السابق، ج 2: 749، وأبو شامة، كتاب الروضتين، ج 2: 92.